

من رموز الشتاء

في مضارب شمر البادية للأنسة زينب الحكيم

إن للبادية طابعا خاصا ، فهي في النهار غيرها في الليل ، وهي في شمسها الفجر غيرها في غلس المساء . في الصباح الباكر تبدو الطبيعة هواؤها وماؤها ، نباتها وطيورها ، حيوانها وإنسانها متماثلًا قواها ، على أهم اعتمادها للنشاط والانتاج ، يبدو الزهد على كل شيء والتضحية بكل شيء ، ويظهر محيط موحد يضم هذه العناصر جميعها .

يبقى هذا المنظر لحظات سريعة الرور خطيرة الأثر . وتبكر الشمس فتتمد خيوطها الجميلة فتعطي الزهر ، وتنشئ المشب ، وتنشط الهواء ، وتداعب الندى .

وتسرع للقطمان ورعاتها للسمي والتنقيب ، فينكسر سكون الصباح ، وتسمع هنا مواء ، وهنا نباحا ، وهناك صياحا وغناء . ويدور الأحياء دورتهم ، في شؤون الحياة العملية الصرفة ، صابرين على هجير البادية وقارس بردها ، وعلى جذبها وخصبها ، راضين بسكونها وثورتها .

ها هو ذا السيل يتأهم ، وذكاه على وشك الغروب زراء الأفق ، وكذلك تسرع القطمان ورعاتها إلى حظائرهما ، ويدور الفلك دورته المكنية الأبدية . يالله من أصداد الطبيعة ، وهي هي يمتاصرها ومحتوياتها ، سكون شامل رهيب ، يتلاشى فيه ثناء الأغنام وهدير الابل ، ويرتفع فيه نباح الكلاب — ترهف فيه الأسماع وكل الحواس . قبة زرقاء صافية في الصباح الباكر ، زينها لضوء الهادي البديع ، والضباب الخفيف والنسيم اللليل ؛ وقبة زرقاء ، قاعة في المساء ، تتلألأ فيها نجوم زاهرة ، وتماوج نسائم بليلة حائرة ، وتشمل الكون بمن فيه رهبة قاهرة .

لين ؟؟

أذهب مسرعة إلى الخيمة التي أعدت لتومي وسط هذه الطبيعة القربية ، والبادية البعيدة ، فيدخل معي الشيخ ليدلني على نظمتهم ، ومعهم خادمان ، يحمل أحدهما مصباحا ، والثاني طستًا وإبريقًا به ماء دافئ ؛ وأشكر الشيخ على شدة عنايته

باستكمال وسائل راحتي ، فيقول: عمى مساء ، وينصرف في رداء العربي الشريف ، ونظرة البدوي الشجاع .

ويحماق للبد في وجهي به ألب إذا كنت أريد شيئا قبل أن ينصرف فأشكره وأمره أن يترك الصباح عندي على المنضدة . وسألته إذا كان لديه شمة وعلبة نقاب . فتناولني علبة النقاب أما الشمعة فلا توجد . وضعت الكبربت على الكرسي القريب من السرير ؛ وقلت له بعدة من فضلك اخرج وأنقل باب الخيمة . فبدأ يضع الحبل في الثقوب المدة لتلك بشكل فني ، وكنت واقفة أرقب ما يعمل (وهنا تذكرت خيام الكشافاة ، وكل ما تعلمته من حركاتها النافعة ، وأوصى كل فناء وكل فني أن يندمج في ساكنها ركا ، فإنها للحياة العملية وحياة الحياة والمخاطرات من الدرجة الأولى في الأهمية) .



يجلس العرب البدوي الجزيرة — (قبائل شمر) وبينهم بعض الروار أوشك المبد أن يتم عمله ، ولم يبق إلا ثقبان بدون توثيق ، فنظر إلى من بين طرفي الباب والخيمة ، بحيث لم يظهر منه إلا وجهه الأسود ، بأنفه الكبير المفرطح ، وعينه للامتئين الخيفتين ، وشاربه الطويل الفزير ، وظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء ولسانه الأحمر المرين عند ما قال : عمى مساء سيدتي . قلت : عم مساء وأشكرك . وفي مرمى قلت : (أبيض منظر الخيف الهائل في هذه الذالمة الحالكه ، والسكون الرهيب)

وأردت أن أستوثق من أن جوانب الخيمة محبوكة ، فأطمت إلى أن كائنا ما لا يمكنه دخولها ، فجلست للفرقاء أختبر ذلك . وما كان أشد جزعي ، وأبعد تخيلي عما توهمت ا لقد وجدت طرف الخيمة يصل إلى حافة السجاد المنطلي أرض الخيمة لحسب ، والهواء البارد يمر من جميع زواحيها ، ويستطيع

أى حيوان أليف أو متوحش ، اندخول بلا أدنى عائق . فاستولى على جرح لم أعده في حياتي ، وعبثا أحاول إفناح نفسي بالندرج بالشجاعة ، أو باستمادة الناس . بكم من ليال تمها في أشباه هذه الخيمة في إنجلترا ، في أجواء أروا وأشد سقيما ومطرا بل وثلجا . وإن تمع في ذاكرتي أهم الحوادث الثرية ، التي حدثت لي في بعض هذه المخاطرات ، فلن تمع الحادثة الآتية التي حدثت لي مرة ونحن نحيم في البرية في جهة من جهات إنجلترا :

أخذنا نخيمنا وسط أرض جيدة ، توهمنا أنها خير ما ظهر لناظرنا صالحا لهذا الغرض . وكنا بيدين جدا عن السكان ، وكنا طالبات فتيات ، متخذات من شبابتنا قوة على أعمال الكشف والتكشف . وبعد جهاد يوم شاق من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر ، أخذنا هدتنا للنوم ، فدخلت كل منا في كيس نومها الذي ينظي جميع أجزاء جسمها ، وتربط طرفه الأعلى حول عنقها ، فلا يكون غير الوجه ظاهرا ، ويقطى بغطاء خفيف يمنع الحشرات ويسمح للتنفس .

على بركة الله اقتربنا الأرض والتحفنا الخيمة ، وما كنت أسلم جفني للكوى حتى شمعت بحركة غريبة تحت جنبي ، فقلت لماني أنام على جنبي الأيسر ، مما سبب للقلب قلعا ، فقلت على الجانب الأيمن ، ولكن الحركة استمرت ، بل زادت شدة ، فجمد الدم في عروقي ، وهدأت حركتي قسرا ، إذ تصورت أن هفرتنا تحت الأرض ، كأنما يقصد أن يشق بطن الأرض فيخرج منها ، ويتخذ جسمي بدبلا . وخطرت يالي جميع خرافات الجن والشياطين والأرواح ، وهقد الخوف لساني ، فلم أستطع الاستماتة بصديقاتي ، ولا أملك تحريك أطرافي فأدفع عن نفسي ذلك المفريت الأرضي .

ولما اشتدت حركات المفريت وحنفت سرخت مستغيثة كمن أصابه مس مؤكد . فهرعت إلى الطالبات ، يستفسرن الخبر فأخبرتهن ، فبالت واحدة : أرى في «درئي» أحضري الكيس ، وصاحت أخرى : «نللي» أحضري جبلا ، وأسردت ثالثة ورايمة بأيديهما سكين ومسدس ، وتصورت أن الجن قد أنت ساعته ، ووحان حينه ، وأنى كنت على حق فيما أحسست ، وحدث الله على أنى لم أكن مدعية ، وبدأت أنشط مع الجاعة لأنتقم لنفسى من ذلك الشرير الذى طامنا اختفى ، وها قد حان الوقت لزوبته ، ككشف سر المفاريت كلها بمد كسب ناله .

وضعت الفتيات الكيس مقلوبا على المكان الذى تصورنا أن المفريت سيخرج منه ، بحيث إنسجمت فتحة الكيس على الوضع تماما ، واجتمعت الأيدي على تثبيتها بحيث لا يستطيع فكها . وتوجهت همه الفتيات كلها إلى القبض عليه في الكيس حتما . وأخيرا وبعد جهاد شاق ، قفزت عقاريت ثلاثة من باطن الأرض إلى داخل الكيس المنين ، ثم انتهت الحركة في باطن الأرض ، فقبضت الطالبات على فتحة ، وبدأن يذبحن الشياطين الكفرة ، قائل الله الأراب البرية لقد كان شكلها جميلا وطعمها لذيذا ، ولكن قملتها كانت شنيعة بالنسبة لى وحدي ، لأنه لم تكن لى هذه التجربة من قبل ، مثل باق زميلانى ، اللان اعتبرن حدودها لى حسن حظ وتوفيق أنى للجاعة الكشفية ، عن طريق الساحرة المصرية ، التى نعرف سر الكشف عن الكنوز في زعمهن .

هذه هى قصة الحادثة الثرية التى سبق أن حدثت لى ، وكان يجب أن أكون أكثر شجاعة مما كنت تلك الليلة في مضارب شمر . ولكن ليدكر القارىء أن شعور الأمان والنظام الذى يحسه الانسان في بلاد الأنجليز ، غير الشعور الذى يحسه في أى بلد آخر . فإنا بما يشعر الانسان به بين أشد القبائل البدوية مراسا وقوة ، إن تلك الحادثة على فظاعتها وما سببته لى من رعب لم تكن أشد تأثيرا في نفسى من تلك الليلة في خيمة البادية . لم أذق للنوم طمها طول تلك الليلة ، لاخوفا من البدو والعرب أنفسهم ، ولا من عبيد الشيخ كما توهمت ، بل بالتحليل النفسى الذى شغلت نفسى به ، توصلت إلى التعليل الآتى ، وأظنه معقولا تماما :

- ١ - كان الطريق وهما جدا وطربلا متعبا إلى أقصى حد احتملته ، فضعفت عندى قوة المقاومة والتليل الوقتى المترن .
 - ٢ - هذا بالإضافة إلى حياة مباينة كل اللبائن لما سبق أن اعتدته زمتا طويلا من النوم داخل سبائى ، مما جعلنى أشعر أنى أنام في المرء ، وسبب هذا لى وحشة شديدة لم تتحملها أعصابى وجسمى التيبان ، فحدث لى الأرق والرعب .
- ومع كل هذا أشهد أنى قتت في الصباح ، تاركة فراشى على أحسن ما يمكن من الصحة والنشاط ، كما لو كنت نمت الليل كله ملء جفنى ، فإن الهواء هناك محيى رطوبته ، وبذلك قد عوضنى بدل

النوم، ولعل هذا سبب ثالث لعدم نومي، ولعله من الأسباب المهمة أيضا في قوة بنية البدو أنفسهم.

الحياة الاجتماعية عند البدو « قبائل سمر »

لهم مجالس محادثات في الأمور المعاشية، ثم لهم مجالس الشعر والرواية. وتستعمل الرابطة قليلا، والوسيقى كانت من أهم الأشياء التي انتقدتها في العراق وكردستان، وفي الجزيرة.

أما الراديو، فيموض الآن جانبا كبيرا من هذا النوع، أما (بتونس) به البدو، على حد تمييزهم بدرجة محسنة كما أداره للشيخ وألماهم كثيرة منها نوع يشبه الموكي، ومطاردات الخيل (الفروسية) أما المبارزة فانقرضت الآن.

يلعبون ألعاب الورق (الكوتشينة) قليلا للنسبية فقط.

أما في أيام رمضان فيامبون (الورسان) Warsan وهو نوع من ألام الميسر؛ ويلعبون الضامة.

شخصية الشيخ عمير الباور

لا يمكن وصفها أو تصويرها تماما لمظمتها، ويكفي أن يقال فيه: إنه خبير وداهية البادية، ولو أنه أمي، إلا أنه يزر كثيرين جدا من التملين.

ابن الشيخ صفوك الباور:

ثقافته حديثة، فقد درس في الكلية الأمريكية ببيروت، ثم عاد إلى البادية لمساعدة والده في سياسة المشائر.

وسياسة رؤساء المشائر عربية كانت أو كردية، في تربية أبنائهم، هي أن يملوم الآن في المعاهد الحديثة لينوروم، ويقووا عقليتهم، لا على أن يهجروا البادية، بل ليزدادوا حبًا لها، وعناية بمصالح البدو. وهم لذلك يحرصون الحرص كله على إبساد كل فكرة من شأنها إفساد أبنائهم عليهم أو تنفيرهم من الحياة التي شب آباؤهم وأجدادهم عليها.

وأم للصعوبات في سياسة المشائر هي الخاسبات بينهم، ثم الدود عن مصالحهم عند الحكومة، لأنهم جهلة، لا يستطيعون قضاء مصالحهم، أو حل مشكلاتهم بأنفسهم لقله خبرتهم. والذي يقوم بأداء هذا كله الشيخ وابنه.

معلومات عن قبائل سمر وعمرها

وهي مستقاة من ابن شيخ المشايخ:

قبائل سمر مكونة من مجموع قبائل: (١) زوبيع (٢) السنايس

(٣) أهل الحية (٤) أولاد علي.

وكل ما يعلم عن قبائل سمر أنها متنوعة ومتفرقة جدا، ولا يكاد الرء يحيط بها لكثرتها. والقبائل المذكورة اختلطت فروعا بعضها ببعض.

نبذة عن قبائل سمر - من الطبع الخاص

تنقسم قبائل سمر إلى قسمين، قسم منها يقطن بجزيرة العراق ويسمى « شمر الطوقة » وقد صاروا من القبائل المتحضرة.

ويسمى القسم الآخر « شمر الجربة » وهو يتألف من القبائل الساكنة في شمالي العراق في الجزيرة بين دجلة والفرات. وقد هاجرت هذه القبائل من جبل حائل في منتصف القرن السابع عشر.

أما الأرض التي تقطنها شمر الجربة في الجزيرة، فتمتد من شرقي دير الزور شمالا إلى هور «عقرقوف» جنوبا، ومن الفرات غربا إلى الموصل شرقا، وراها قد احتفظت بالقيمة الخصب الواقعة في شمال شرقي الخابور، ولا سبها حوض وادي جنجغ الفياض. وتمتد شمر على حالة البداوة، وتسكن بيوت الشعر، وتنزل أحيانا، بين شمري أربل ومايو في شمال جبل سنجار، وتنتشر إلى جوار نصيبين ووادي السويدي.

أما في الأشهر الأخرى فتتزعج إلى الجنوب، وتتحول في المنطقة الواقعة في جنوب جبل سنجار.

وهي من أقوى المشائر مشاجرة، ولا تزال في خصام مستمر مع قبائل دليم وبقارة، وعشائر على الكردية.

والصداء القديم متمكن بينها وبين قبائل عنزة، وهذه تملك أحسن الجياد وأكثر الجمال. ويبلغ عدد نفوس قبائل سمر من ٥٠ إلى ٦٠ ألف نفس. ينسب الحكيم

المدرسة العربية

لتدريس اللغات الفرنسية والانجليزية
والرسم بالمراسلات وبالمدرسة

الشرط ترسل مجانا وقت الطلب

١٢٦ شارع عماد الدين - القاهرة